(1) الظاهرة التربوية

مع أول محاولاتى فى التفتيش عن أصول فقه الدعوة فى المجال التربوى حين عزمت أن أحييه: جبهنى قول قيّم ثمين لأبى عثمان الحيرى الذى هو من ثقات الزهاد وجلة شيوخ القوم كما يقول ابن القيم فى المدارج، حتى إن قوله يمثل عندى إحاطة تامة بنظرية التربية، وهو أسبق من التربويين المعاصرين فى اكتشاف الظاهرة التربوية وأدواتها وأنماط تأثيرها.

يقول رحمه الله:

«فعل من حكيم فى ألف رجل: أنفع من موعظة ألف رجل فى رجل، وإنما هى مصادفات القلوب من حيث صفاء القلوب عندما يطرقها من واردات الغيوب من المسموعات والمنظورات، فإذا اتفقت: قويت، وإذا اختلفت وتضادت: ضعفت، إلا أهل الاستقامة والصدق والكمال، فإنهم قد جاوزوا ذلك، وسقطت عنهم رؤية التمييز، فلا يتغيرون، ولكن ربما تُجدَّد لهم أذكارهم بما يسمعون، وتصفو لهم المشاهدات وقتًا بعد وقت، وذلك زيادة صفاء تَجدَّد لهم عند سماع الكلمة».

إن من الحقائق السارية التى ظهرت منذ بداية الحياة الاجتماعية الإنسانية ويغفل عنها البعض أن التقليد والمحاكاة من صفات الإنسان الاجتماعى، وأنه قابل للتأثر بغيره تأثرًا لا يشعر به، حتى إذا بلغ التأثر حدًّا فى الكثافة كبيرًا تحول إلى عقيدة وفكرة ومفهوم ثابت ينقل المتأثر إلى مرحلة تمحيص عقلى لما عند الغير، فيزداد أخذًا لما يوافق عقيدته المتكونة، ويرفض ويعاف ما يضادها.

إن «السمع» و«البصر» هما الأداتان الرئيستان اللتان يتم بهما هذا التأثر اللاشعورى، فالشخص يسمع شيئًا، ويتكرر لديه هذا السماع، فينشغل فى التفكير بما سمع، حتى يأخذ عليه تفكيره وقتًا يزداد كلما زاد السماع، وعن طريق دوام التفكير بما سمعه تتحول الأفكار المسموعة إلى عقائد ذاتية عند الشخص يعتنقها ويحملها، وغالبًا ما يصل هذا الاعتناق إلى التعبيرعنها بنفس الاصطلاحات والكلمات التى سمعها.

obeikandl.com

ومثل هذا التأثر السمعى: التأثر البصرى؛ فإن الشخص إذا رأى شيئًا من المناظر، وتكررت عليه مشاهدتها، انشغل تفكيره بها، وصار ميالاً إلى تقليدها ومحاكاتها.

وفى هذا التأثير تستوى المناظر الحسنة أو الكلام الحسن مع المناظر القبيحة أو الكلام القبيح إذا وزنّا الحُسن والقبح بميزان الإسلام. يستوى الخير والشر فى قدرتهما على التأثير فى المقابل، لأن النفس الإنسانية بذر الله فيها -كما قال فى كتابه العزيز- كلا المعدنين، وألهمها الفجور والتقوى معًا.

وهذا التقرير هو الذى يفسر استمرار المجتمعات المختلفة فى المحافظة على عقائدها، فليس هو الاجتهاد المحض يقود سكان أوربا إلى اعتناق النصرانية فيتواطأ الجميع على الوصول إلى نتيجة واحدة؛ وإنما هو التأثر من اللاحق بالسابق. وليس هو الاجتهاد الذى يقود الزنوج إلى عبادة الأصنام والأشباح؛ وإنما هو تأثر السمع والبصر.

إن التأثير اللاشعورى العفوى يسبق التأثر الشعورى الإرادى عند الشخص، ويظل ملازما له حتى عند ظهور إمكانية التأثر الإرادى عنده، ذلك أن الأول يبدأ منذ الطفولة، بينما الثانى- وهو الإرادى المبنى على نتائج محاكمات عقلية عند الشخص- لا يكون إلا من بعد حيازته بعض الأفكار التى يجعلها أساسًا لوزن ما يسمع وما يرى بها، ويكون قد حازها بتأثر لا شعورى سابق.

وإلى هذا أشار رسول الله ﷺ حين قال: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه، كما تنتج البهيمة، هل تجدون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها؟» (1). وقال النبى ﷺ أيضًا: «الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل» (2).

وهذا يعنى أن الشخص الذى وصل إلى درجة حيازة أفكار وعقائد معينة وانتقل إلى مرحلة التأثر الإرادى، بإمكانه أن يوجه الكلام والمناظر العملية باتجاه معين يوافق أفكاره وعقائده، كى يسمع كلامه ويرى مناظره من لازال فى مرحلة التأثر اللاشعورى، فيتأثر بها ويقلدها.

---

(1) صحيح البخارى: 8/ 153.

(2) رواه أبو داود والترمذى فيما ذكر منصور على ناصف فى التاج الجامع للأصول 5/ 74. وصححه النووى، كما جاء فى تحفة الأحوذى.

إن هذه العملية فى توجيه الكلام والمناظر باتجاه معين واحد يعضد فكرة وعقيدة معينتين تسمى عملية «التربية».

إذن؛ فإن بإمكان أى شخص ذكى لبق إذا اعتنق فكرة معينة وتلبس بعقيدة خاصة ومفهوم خاص عن الحياة أن يكون «قائدا» و«يربى» الآخرين عن طريق دعوتهم بالكلام إلى مشاركته الرأى وحمل عقيدته، فيشرح عقيدته، ويمدحها، وينقد غيرها، ويريهم بعض المشاهد العملية التى تترجم فيها مفاهيمه إلى وقائع محسوسة بالبصر.

هذا هو الغالب فى الحياة البشرية، ولكن الله ﷻ حين خلق آدم عليه السلام علمه التوحيد وجعله نبيًّا، وبعث فى أجيال أبنائه أنبياء آخرين، وبذلك صارت عقيدة التوحيد الإسلامية محل تربية، فمنهم من قدر الله أن لا يرى ولا يسمع غير حملتها وكلامهم فأسلم ووحد، ومنهم من ضل عنها بإغواء الشيطان ووسوسته الخفية التى لا ترى، وصار يربى غيره وفق ضلاله، وساعده الشيطان ثانية فأضل معه جمهرة، ومنهم من نشأ فى هذه الجمهرة الضالة، لا يرى ولا يسمع غير ما يصدر من دعاتها، ولكن الله يقذف فى قلبه من المعانى ما هو أقوى من تأثير كلامهم ومناظر أفعالهم، فيهتدى ويوحد بمنحة من الهداية هى دون النبوة يختص بها بعضا دون بعض لحكمة نجهلها نحن، فالاستثناء دائر فى هذه العدد الذى يختصه الله سبحانه بمنحة الهداية، ويبقى ما قلناه من تأثير الكلام والمنظر ساريا فى الآخرين، وخير هذا التأثير وشره إنما يسرى بقدر الله تعالى، فإن كان الكلام والمنظر يدعوان إلى التوحيد والإسلام وأثرا فى البعض فبقدر الله كان هذا التأثير، ولكن المتكلم كان سببا لظهور قدر الخير هذا وفق قانون التأثر السارى فى الحياة الاجتماعية الذى قلناه، ومن ضل فبقدر الله ضل، واكتسبوا ضلالهم وفق تأثير قانون التأثير أيضا فى الصورة الظاهرة، وإن كان الله سبحانه قد جعل إغواء الشيطان الخفى سببا لا نراه. ونخلص من هذا كله إلى أن التحليل الإسلامى للهداية والضلال لا ينقض ما ندعيه من وجود التأثير التربوى -السمعى والبصرى- فى الحياة البشرية الجماعية، وهذا التأثير هو ستار القدرة الربانية الذى تتمثل به، وعبر أبو عثمان الحيرى عن هذه القدرة الربانية التى تتقمص شكل التأثير التربوى المشاهد بأنها «واردات الغيوب من المسموعات والمنظورات»، وإنما الغيب من القدر الذى لا نعلمه، ولا يجوز الاتكال عليه، فوجب إذن أن نجعل قانون التأثير التربوى المذكور طريقا للعمل وميزانا لتحليل الظواهر

الاجتماعية، وحين أخبر رسول الله ﷺ بأن الله سبحانه قد كتب الهداية والضلال لكل واحد من قبل وكتب جزاءه سألوه: «ألا نتكل يا رسول الله»؟ فقال: «لا، اعملوا، فكل ميسر»[1] وقال: «كل يعمل لما خلق له أو لما يسر له»[2]، ومن العمل الذى يدخل فى هذا الأمر النبوى الكريم: العمل بهذا القانون التربوى المبنى على ظاهرة مشاهدة تصاحب العيش الجماعى، فإنه من الواقع الملموس، وقد أشار النبى ﷺ إلى مثل هذه المعانى فى قوله: «ما استخلف خليفة إلا له بطانتان، بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، والمعصوم من عصم الله»[3] فأقر أن التأثير موجود، ومثل هذا كثير، بل إنه لأمر بديهى، وإنما ذكرناه لغياب بعض البديهيات أحيانا عن البعض.

عوامل القوة والضعف فى التأثير التربوى

إن قوة التأثير التربوى للكلام وسرعة ظهوره فى المقابل تخضع لمؤثرات عديدة؛ منها:

* نوع الصفات الطبيعية التى يملكها المربى والتى خلقه الله عليها، كمدى الذكاء، والشجاعة، والصبر، والغضب، وكذا ما يتبع هذه الصفات، كاللباقة وقوة الشخصية.

إن الذكى الصبور الشجاع اللبق الذى لا يغضب أقدر على التربية من صاحب الذكاء القليل الجبان الغضوب الذى لا يصبر وليست عنده لباقة، والأمر ظاهر.

ومثل هذا يصدق أيضا على التلميذ، فهو أسرع إلى التأثر عند وجود هذه الصفات.

ولكن تتبع أحوال المجتمعات واستقراء مستويات رجالها يرينا أن أصحاب الصفات الطبيعية الجيدة أقل بكثير من أصحاب قابلية التأثر.

وكأن هذا المعنى هو الذى أشار إليه النبى ﷺ حين قال: «تجدون الناس كإبل مائة، لا يجد الرجل فيها راحلة»[4].

والراحلة: القوية السهلة السريعة السير، وهى نادرة الوجود، فذكر شراح الحديث أن النبى ﷺ يشير بذلك إلى ندرة أصحاب المعدن الجيد.

---

(1) صحيح البخارى 8/ 153، 154، 156.
(2) المرجع السابق.
(3) صحيح البخارى 8/ 153، 154، 156.
(4) رواه البخارى ومسلم وغيرهما فيما ذكر صاحب التاج الجامع للأصول 5/ 64.

obeikandl.com

* وكذا تحكم سرعة التأثر وقوته تلك التربيات السابقة التى صادفها التلميذ وخضع لها، والتى تخالف التربية الجديدة التى يراد له أن يتأثر بها، أى أن حيازة التلميذ لأفكار وعقائد معينة يجعل عملية تحويله وصرفه عنها إلى ما يناقضها عملية صعبة تستدعى قوة فى الكلام وكثافة فى المناظر أكثر من تلك التى أكسبته العقائد الأولى. فإن كان الأمر كذلك فأصعب منه وأندر أن يحدث رفض العقيدة الأولى تلقائيا واعتمادا على قوة التفكير والمحاكمات العقلية الذاتية لدى صاحب العقيدة التى اعتنقها بتأثير لم يشعر به، ولا يحدث هذا التبدل الذاتى إلا عند أفراد قلائل جدًّا، وإنما الغالب أن يكون الرفض من بعد خضوع جديد لتربية مضادة جديدة. والعكس صحيح أيضًا؛ فإن التربية فى اتجاه معين تؤدى إلى زيادة اعتناق، وإن ثبات صاحب العقيدة المعينة على عقيدته إزاء ضغط تربوى جديد مخالف لها قليل أيضًا، وإلى هذا المعنى ذهب الحيرى حين قال: «إذا اتفقت قويت، وإذا اختلفت وتضادت ضعفت، إلا لأهل الاستقامة والصدق...» فأشار إلى أن الغالب هو القوة عند الاتفاق، وضعف التربية الأولى عند التضاد، وأن الاستثناء نادر، وعبر عنهم بأهل الاستقامة والصدق؛ لأنه يتحدث عن التربية الإسلامية.

* وتؤثر الظروف الخارجية والفرص الحيوية التى تحيط بالتلميذ على مدى تأثره وسرعته، كالصحة والمرض؛ فالمريض منعزل لا يرى ولا يسمع إلا قليلا، وكالفقر والغنى، فالفقير يساكن الفقراء، والغنى يساكن الأغنياء، وكلاهما يحرم من سماع كلام الآخر ورؤية مناظر أفعاله، أو قد يلهى الفقير ما قد يبذله من مجهود مهنى عن السماع الكثير، بينما فرص المشافهة والمناطقة لدى الغنى أكثر.

كذلك الحزن والفرح؛ فإن نفس الإنسان تضطرب إذا خولفت نزعاتها الطبيعية الغريزية، فتحزن إذا لم تشبع غرائزها، وتفرح عند إشباعها، وأكثر ما تكون استعدادا للتربية العقيدية عند الفرح، وأبعد ما تكون عند الحزن؛ من السأم والملل والخوف.

هذه هى أهم المؤثرات، ولذلك كان الناس على درجات فى التأثر.

اختراعات تربوية

أثناء الاستخدام التربوى للكلام والمنظر واستثمار قادة التربية لتأثيرهما وجدوا أن الكلام أصناف، وأنه يمكنهم تحويره بشكل ما والتفنن فى صياغته ليوافق نزعة حب الجمال الأصيلة فى الإنسان، وبذلك صار الانفتاح لاستخدام «الأدب» وسخروا البلاغة النثرية والشعرية فى

شرح الأفكار والعقائد، بكل ما فى البلاغة من إيجاز وإطناب وتشبيه وجناس، وبكل ما فى الشعر من تعدد الأوزان، ليوافق كلامهم أى طور تكون عليه نزعة حب الجمال عند الأفراد، ولتلائم كل الأذواق، ثم صاغوا الكثير من أدبهم الفكرى فى صورة ألحان تزيد التأثير.

ولما رأوا فى البعض نزعة أخرى للتمحيص والموازنة مبعثها الشك الذى يكاد أن يكون من الأخلاق الطبيعية فى الإنسان، لجئوا إلى استخدام «المنطق» ليقدموا الكلام بشكل متناسق برىء من العيوب الظاهرة؛ كى يتبدد الشك.

ثم وضعوا «الاصطلاحات» ذات المدلول المعين لزيادة مدى التفهيم، واستخدموا «التاريخ» لزيادة الإقناع عن طريق ضرب الوقائع السابقة كأمثلة على صدق أفكارهم.

وهكذا صار «الأدب» و«المنطق» و«اللغة الاصطلاحية» و«التاريخ» من آلات التربية.

قد لا يكون المربون هم الذين اخترعوها، إلا أنه من المسلم به أنها وضعت فى الاستخدام التربوى منذ القدم.

اختلاط التربيات

إن العمليات التربوية ليست عمليات ميكانيكية، إذ لم تبدأ فى وقت واحد خلال هذا التاريخ البشرى، ولم ينطلق المربون فى لحظات واحدة كما ينطلق المتسابقون فى ساحة السباق ليجربوا جهودهم التربوية لمعرفة الأقدر منهم على إقناع الآخرين، هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى، فإنه ــ فى الغالب ــ ما من مربٍّ يستطيع أن يحجز كل وقت تلاميذه ليربيهم، وإن ضرورات الحياة وطلب العيش تجعل التلميذ أعجز من أن يهب لقائده ومربيه كل وقته.

فمن هاتين الناحيتين وجدت ظاهرة «اختلاط التربيات» وصار المجتمع خليطًاعجيبًا من أشخاص تتنازعهم تربيات عديدة، فإن الدرجات العديدة التى عليها أصحاب كل وجهة تربوية بحسب مدى السماع والرؤية، والدرجات المتعددة التى عليها أولئك الذين تتنازع التربية الجديدة عندهم مع التربية القديمة، كل ذلك جعل المجتمع وكأن لكل عضو فيه تربية خاصة معينة، أو أن أصحاب السمت الواحد هم عدد قليل.

ولا شك أن هذه الظاهرة فى اختلاط التربيات تحد كثيرا من تأثير الجهود التربوية، ولذلك لجأ المربون إلى علاج هذه الظاهرة ووضع الحلول لها.

من هذه الحلول: «التخصص» فى استخدام آلات التربية، لعدم استطاعة القوة البشرية عند الفرد الواحد البراعة فى استخدامها كلها، وهكذا ظهر فى جماعة المربين الناثرون البلغاء والشعراء والمؤرخون، والممثلون المسرحيون، والمغنون، وغيرهم، طلبا للبراعة والإتقان.

ومن هذه الحلول: «التربيات المرحلية»، فقد وجدوا أنهم بحاجة ــ بسبب من انتصار إحدى التربيات المخالفة وطغيانها على غيرها ــ إلى أن يركزوا على مجال واحد يكون أكثر تأثيرا فى إبطال مفعول التربية المنتصرة، أو يكون أضمن لاستمرار التلاميذ فى صراعهم مع التربية المنتصرة الغالبة ويمدهم بقوة تثبيت.

ومن هذه الحلول: «التركيز على المنظر العملى»، لما وجدوه من زيادة تأثيره على تأثير الكلام. وقد ورد فى القرآن والسيرة ما يشير نوع إشارة إلى أن المشاهدة أبلغ فى التربية من الكلام المجرد.

قال ابن القيم: «بين الخبر والعيان فرق. وفى المسند مرفوعا: «ليس الخبر كالعيان» ولهذا ما أخبر الله موسى أنه قد فتن قومه، وأن السامرى أضلهم: لم يحصل له من الغضب والكيفية وإلقاء الألواح ما حصل له عند مشاهدة ذلك»[1].

ومثله طلب إبراهيم عليه السلام اطمئنان القلب بالمنظر حين قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة:260].

وقريب من هذا ما ورد فى السيرة أن رسول الله ﷺ لما فرغ من كتابة هدنة الحديبية مع موفد المشركين سهيل بن عمرو قال لأصحابه: «قوموا فانحروا واحلقوا وأحلوا ــ أى من الإحرام حين نووا العمرة ــ، فلم يجبه أحد إلى ذلك، فرددها ثلاث مرات، فلم يفعلوا ــ أى لشدة حزنهم لما رأوا فى ظاهر شروط الهدنة ضيما للمسلمين ــ. فدخل على أم سلمة رضي الله عنها وهو شديد الغضب، فاضطجع، فقالت: ما لك يا رسول الله؟ مرارا، وهو لا يجيبها،ثم قال:

(1) مدارج السالكين 3/ 388. وذكر محمد ناصر الدين الألبانى رحمه الله صحة حديث مسند الإمام أحمد الوارد فى كلام ابن القيم، وفى شرح العقيدة الطحاوية/ 315 مثل هذا المعنى.

obeikandl.com

عجبا يا أم سلمة! إنى قلت للناس: انحروا واحلقوا وأحلوا مرارا، فلم يجبنى أحد من الناس إلى ذلك، وهم يسمعون كلامى وينظرون فى وجهى! فقالت: يا رسول الله، انطلق أنت إلى هديك فانحره، فإنهم سيقتدون بك. فاضطبع بثوبه ــ أى أدخله تحت إبطه الأيمن وغطى به الأيسر ــ وخرج، فأخذ بالحربة ويمم هديه، وأهوى بالحربة على البدنة رافعا صوته: باسم الله والله أكبر، ونحر، فتواثب المسلمون إلى الهدى، وازدحموا عليه ينحرونه حتى كاد بعضهم يقع على بعض»[1].

هذا هو التحليل البسيط للظاهرة التربوية بعيدا عن الاصطلاحات المعقدة التى يستعملها الذين يحللونها اليوم، وتحليلنا هو الذى ينسجم مع نظرة الإسلام إلى الفرد العقائدى كقوة يمكنها تغيير مجرى الحياة متى استعمل الطريقة التربوية ونظر إلى أفراد المجتمع على أنهم تلاميذ له.

إن كل المحاولات الإسلامية التى غيرت مجرى التاريخ أو عدلته وقومته بدأت بفرد واحد، فإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، وكل الرسل، صلى الله عليهم وسلم، بدءوا أفرادا، وعن طريق التأثير التربوى آمن بهم البعض، فعاونوهم، فتوسع التأثير حتى غير مجرى الحياة، وخبر المصلحين المجددين من بعد الأنبياء مشهور مستفيض.

وكذلك كل المحاولات غير الإسلامية.

فأصحاب البدع فى التاريخ الإسلامى بدءوا أفرادا ثم انتهوا إلى تكوين طوائف واسعة، وماركس وهتلر، كل منهما بدأ فردا واستعمل التأثير التربوى فكون حزبا، واستلم الحزب السلطة فتغير مجرى التاريخ، ولا مغير إلا الله، وما من حركة فى هذا الكون إلا بإذنه.

وكذلك هرتزل ووايزمن وأصحابهما، بدءوا أفرادا واستغلوا التأثير التربوى المزدوج فى اليهود وشعوب العالم أجمع، فتغير مجرى تاريخ اليهود.

وكل تربية، حين تصل إلى السلطة، تعضد تربيتها بحجب الفكر المخالف لها عن تلاميذها أفراد المجتمع الذين تحكمهم، لينشأ الجيل الجديد فى سماع ورؤية لكلام ومناظر التربية المتسلطة الحزبية، والدكتاتوريات.

---

(1) إمتاع الأسماع للمقريزى 1/ 299.

وهكذا يتضح المنطلق التربوى للحركة الإسلامية الحاضرة، فإن انطلاقتنا انطلاقة تربوية غايتها التأثير فى النفس عن طريق السمع والبصر.

وهكذا يتضح أن المعركة التى نخوضها هى معركةتربوية أولا وآخرا.

خضوع التخطيط الحركى للحقيقة التربوية

إن هذا التحليل لظاهرة التربية مفيد جدًّا للعاملين فى الحركة الإسلامية، ذلك أنه يمكننا بواسطته تفسير كل المشاكل التى نلاقيها فى العمل الحركى، ويتيح لنا التعرف على أصولها، ووضع الحلول لها.

ويكفى هنا أن نقرر وجوب التربية المرحلية فى الخطة الحركية استمدادا من هذه الحقيقة وتبعا للتربيات المضادة التى تجابه الإسلام اليوم، وإذا جمدت الخطة على الأصول التى وضعها الرعيل الأول من الدعاة فإنه سيفوتها خير كثير، وتهدر جهود كثيرة.

ومن هذه الحقائق أيضا أن نستمد وجوب اعتماد الحركة فى عملها على جهاز متكامل الاختصاصات يمهر فى وضع «النثر البليغ» و«الشعر الفسيح» و«علم التاريخ» و«أسلوب الاستدلال العلمى» فى خدمة عقيدة التوحيد وأحكام الإسلام، ومخطئ من يرى غير ذلك، ويظن أن البعد عن ذلك من سمت البساطة الإسلامية، وأثر الإعجاز القرآنى البلاغى يفضحه.

وظاهرة اختلاط التربيات تلح على الحركة أيضا أن تصنع مجتمعًا خاصًّا للجُدد والناشئة يستهلك أوقاتهم كلها ويضمن ابتعادهم عن التلبس بتأثير تربوى جاهلى.

وعمومًا فإن الانتهاء من هذه التقريرات والتحليلات يتيح روية واضحة جدًّا لما يترتب عليها من وجوب التفنن فى أساليبنا التربوية والإعلامية عبر استعمال المعطيات العصرية فى استثمار ظاهرة تأثر النفس الإنسانية بالمسموع والمنظور، ولم يعد طبع الكتب كافيًا، ولا إلقاء شعر فى المناسبات.

* فما ذكرناه من ابتكار التمثيليات المسرحية كمنظر تربوى مؤثر ينبغى أن نفكر اليوم تفكيرا جديًّا فى كيفية تطويره إلى إنتاج أفلام سينمائية جادة، ومسلسلات يمكن أن تعرض فى التليفزيون، فيها إبراز لمعانى الإيمان والأخلاق والحياة الأسرية الجادة، ولمعانى الجهاد والجد

وسير المجاهدين ومقاومة الاستعمار والثورات الإسلامية، وتصوير أشواق الأحرار، وقبائح الظلم والفساد، حتى إذا رفضت بعض محطات التليفزيون إذاعتها: أذعناها بوسائلنا الخاصة بين جمهورنا، ومثل هذا العمل قد يحتاج إلى تعاون بين الأقطار، ربما.

* ونجاح الاستعمال الإسلامى لمعطيات الإنترنت، والإقبال الذى قوبلت به بعض المواقع: يحتم إتمام الشوط والتوغل إلى أبعد والتوسع الكمى والنوعى معًا، بحيث نمارس عملاً إعلاميًّا عريضًا عبر التنسيق بين المواقع العديدة يكون فيه تعويض عن الإعلام التليفزيونى والصحفى الذى تفتقده الدعوة إلا قليلاً، والمفروض أن تؤخذ هذه الفرصة مأخذ الجد، لما سيكون لها من انعكاسات إيجابية على العملية التربوية الداخلية داخل صف الدعوة تعادل التأثيرات الخارجية على جمهورنا، والموقع الناجح يحتاج إلى محاضرات، وتقارير، وتحليلات، ومقابلات مع قادة الفكر والدعوة، وتصوير ما فى الساحات الساخنة، وترويج خبر النشاطات البعيدة المهمة، مع نقد للكتب الجديدة والمقابلات الفكرية، وإظهار لزعمائنا وقادتنا وقدواتنا. ومن الممكن إنشاء «بنك الكمبيوتر الدعوى» فى كل قطر لتسهيل بيع أجهزة الكمبيوتر للدعاة بثمن الكلفة وبأقساط طويلة، من أجل توسيع دائرة الانتفاع من عطاء مواقع الإنترنت الدعوية وإتاحة فرصة المشاهدة الجماعية، وفى ذلك تفصيل يؤخذ مشافهة لا تحيط به الكتابة.

ويتفرع عن مثل هذا إشاعة الكتاب الإسلامى والمجلات بالأقراص المدمجة، وكذا الأفلام والتمثيليات، من أجل تحقيق انتشار أوسع.

ومن أهم ذلك عندى: استثمار المخزون الفكرى والوعظى العظيم الحجم الكامن ضمن ما يقدر بخمسين ألف شريط صوتى ومرئى على الأقل سُجِّلَت فيها خطب ومحاضرات وندوات ثقات الدعاة والمفكرين والقادة والوعاظ وخطباء الجمعة خلال السنوات العشرين الماضية، فهذا الكم الهائل لا ينبغى أن يُهمل، وإنما يجب أن تقوم فى كل قطر لجنة لها علاقة باللجنة التربوية، تجرد هذا المقدار الكبير من الأشرطة، وتنتقى منها أحسنه وأجوده وأفصحه وأكثره صوابًا وفائدة وأثرًا تربويًّا، بحيث تهمل من كل عشرة تسعة وتأخذ شريطًا واحدًا، فستكون الحصيلة خمسة آلاف شريط جيد يمكن أن نجعلها وسيلة تربوية أساسية فى البلد

بإشاعتها والتركيز عليها وبيعها بثمن الكلفة، ثم نتقى عشر العشر، ونركز على خمسمائة شريط نوزعها مجانًا بأعداد كبيرة على الناس، وبخاصة من سيتيح إسماعها إلى غيره، مثل أصحاب المقاهى، وسائقى التاكسى والحافلات، وبذلك يمكن تحقيق توعية شعبية واسعة النطاق هى أشبه بثورة فكرية من دون أن نحتاج إلى جهد موضوعى؛ لأن الكلام جاهز مسجل، لكنه منسى مهجور، وستكون التأثيرات التربوية من هذا العمل عظيمة، وتحقق نتيجة حاسمة لصالحنا، ولكنا قوم لا نتفنن، ولا نستعمل المتاح، وتسيطر علينا بقية نمطية مضيعة للفرص، وما زال الاستدراك مفتوح الباب، وأولى من ينفذ ذلك: اللجان التربوية.

* **وقريب من هذا العمل:** انتقاء أجود الفقرات والجمل والعناوين والشعارات التى أوردتها الصحافة الإسلامية، وحشدها فى كراسات صغيرة توزع بين الناس، على نطاق واسع، فهذا العمل لا يحتاج جهدًا موضوعيًّا؛ وإنما هو إحياء لما أوردته الصحافة الدعوية خلال السنوات الشعرين الماضية عن طريق الاختصار والانتقاء وجمع الشىء إلى مثيله، ففى مجالات: «الدعوة» و«المجتمع» و«الإصلاح» و«الأمان» وغيرها كميات هائلة من الكلام المفيد الذى يمكن أن يُحدث ثورة أخرى فى الوعى السياسى بخاصة وفى الفكر الإسلامى بعامة، وقد نسيها الجيل الجديد الصاعد، واستخراج مائة رسالة منها على الأقل إلى ثلاثمائة ذات ثلاثين صفحة سهلة القراءة، وتوزيعها على مدى شعبى واسع بأقل من ثمن الكلفة، بأقل من ربع دولار، كفيل بأن يحقق نقلة عاطفية وعقلية معًا.

* **وما يماثل هذه الأعمال:** عملية واسعة لتيسير «الكتاب الإسلامى الشعبى» الزهيد الثمن، وهذه قضية لا يعلم خبرها أكثر الناس، ولكنى أعلمها جيدًا لخبرتى العملية فى النشر، فإن أكثر الناس الناشرين اليوم «ينفخون» الكتاب عن عمد لجعل ثمنه عاليًا وجنى أرباح أكبر، بتكبير الحرف، وتوسيع الهامش الأبيض فى الصفحة، وتوسعة الفراغ بين الفقرات، والمباعدة بين سطر وسطر، والقارئ لا يحس بذلك، بينما يمكن تصغير الحرف وإطالة السطر على حساب الهامش الأبيض فى الصفحة وبعض ترتيبات أخرى ليضغط الكتاب إلى ربع حجمه الحالى، وبذلك يتوفر ثمن الورق، وثمن عملية الطبع، وتقل تكاليف التعبئة والنقل والخزن وأشياء أخرى، ويمكن أن يباع الكتاب الذى ثمنه عشرة دولارات اليوم بدولارين فقط، وبذلك يكون متاحًا للشباب الإسلامى فى البلاد الفقيرة شراء الكتب، وتتضاعف

الصحوة الإسلامية وآثار العلم الشرعى، وتحدث من الأعمال الأربعة: الإنترنت، والأشرطة المنتقاة، والاقتباسات من الصحافة، والكتاب الشعبى الإسلامى: نقلة إستراتيجية واسعة المدى فى جوانب الفكر والعلم الشرعى والوعى العام، ولا يصح أن ننتظر من دور النشر الخاصة تنفيذ عملية الكتاب الشعبى، ولكن إنما يكون ذلك عبر إنشاء دار نشر خيرية يتداعى لها بعض الأغنياء وتدعمها الجمعيات، ومن سار على الدرب وصل، والمتشائم المستصعب لن يبرح مكانه، ويظل يشتكى ويتهم ويتواكل ويحالف الإحباط، وهذه الخطط تحتاج إلى همم عالية وأصحاب تجرّد وعزائم واستبشار.

❊ ويمكن تكميل كل هذا التفنن فى استعمال المنظور والمسموع بخطة تربوية خاصة لاصطناع شعراء وقصاص، عبر نادٍ أدبى إسلامى يرعى القابليات الصاعدة ويداريها ويعلمها اللغة والأدب والبلاغة، ويستورد لها أديبًا أو شاعرًا مسلمًا كل موسم ليشافهوه، ويقتبسوا من هديه البلاغى، فيقوم فى كل قطر مثل هذا النادى الذى يضم بين العشرين إلى الخمسين من الشباب الذكى الولِع بالأدب، ثم يكون تعاون بين نوادى الأقطار فى إصدار مجلة جامعة تنشر إنتاجهم وتروجه، وبذلك يمكن أن نعمم تيارًا أدبيًّا إيمانيًّا يواكب النقلة الإستراتيجية الفكرية الإعلامية ويتكامل معها.

وهذه كلها تمثيلات لما يمكن؛ وإلا فإن الإبداع كفيل بتوسيع هذا التفنن فى استثمار ظاهرة تأثير النفس بالمسموع والمنظور.

❊ ❊ ❊

obeikandl.com